

قيم العولمة والبديل الإسلامي

د. محمد بن نصر (*)

توطئة

تزعم هذه الدراسة - ومن حقها أن تزعم طالما أنها تريد أن تناقش افتراضاً يبدو في ظاهره عصي الهضم ولكنه يبقى في النهاية إجابة محتملة قابلة للتفاعل مع الإجابات الأخرى حول كيفية التعامل مع العولمة - أنَّ التعامل مع العولمة بوصفها المرحلة المتأخرة من تطور الحضارة الغربية سيكون أيسر من التعامل مع العالمية⁽¹⁾ بوصفها المرحلة التي عرفتھا الليبرالية الرأسمالية في المرحلة السابقة عن العولمة، فهي بالرغم من ضخامة الوسائل التقنية التي تستخدمها في بسط نفوذها حركةً كاسحةً، ولكنها بدون روح، فاقدة لعناصر الجذب والفعالية التي كانت متوفرة في العالمية.

تقديم

تكمن الأهمية القصوى في أية ظاهرة من الظواهر الإنسانية في مآلاتها، وتحديدًا في القيم التي تنبثق عنها، لأنَّ القيم هي التي توجه سلوك الأفراد في حياتهم الخاصة وفي علاقاتهم الاجتماعية وكذلك في تصورهم للقضايا الكبرى المرتبطة بوجود الإنسان ومصيره. انطلاقاً من هذه الفرضية تحاول هذه الدراسة أن تنظر في القيم التي ترسخت في عصر العولمة، وبيان أثرها في تكوين شخصية "المواطن العالمي". لم يعد السؤال حول طبيعة العولمة، وما إذا كانت حركة موضوعية لا مناص من الانخراط فيها، أم حركة ذاتية يمكن فهم منطلقها الداخلي، وآليات بسط نفوذها، ومن ثمَّ الوقوف ضدها أو التعامل معها وفق معايير معينة؟ لم يعد هذا السؤال ذا جدوى كبيرة، فالعولمة أصبحت أمراً واقعاً، وهي بطبيعتها ليست وضعا ثابتاً، بل في حالة اكتمال مستمرة على الأقل من حيث الوسائل المستخدمة.

تعددت التعريفات وتنوعت، ولكن هناك اتفاقاً على أنَّ العولمة تجسيد لإرادة القوى الكبرى، أو بالأحرى للقوة الأكبر التي تسعى إلى تحويل العالم إلى مجتمع كوني واحد، تحكمه القوانين نفسها وتوجهه القيم ذاتها، وذلك من خلال التحكم في الاتصال: وسيلة ومضموناً، والتحكم في الاقتصاد: إنتاجاً وتسويقاً، والتحكم في التقنية: تصميماً وإنتاجاً. لم يعد إذاً من الممكن أن تختار أمة من الأمم الانخراط فيها أو عدمه. إنَّ مطالبة شعب أو أمة بالقضية مع العولمة أشبه ما تكون بحالة شخص أُلقي به في اليمِّ، ثمَّ طولب بالأب يتبل بالماء.

(*) أستاذ مساعد بقسم أصول الدين ومقارنة الأديان بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

(1) الثقافة العالمية، ثقافة نامية ومتفوقة، سمت إلى المستوى العالمي مع احتفاظها بصفاتھا الذاتية وهويتها الخاصة، ولأنَّ الآخرين أشادوا بها أصبحت عالمية، فصفة العالمية استحقاق تحصل عليه ثقافة ما من الآخرين، أما العولمة فصفة تطلقها حضارة على نفسها وتفرضها على الآخرين. وأرجو من القارئ الكريم أن يستحضر هذا المعنى كلما مرَّ به حديث عن العالمية، فكل ثقافة لها أن تدعي أنَّها عالمية، ولكن المعيار الحقيقي هل الآخرون يعتبرونها كذلك أم لا. وذلك هو معنى الاستحقاق، فصفة العالمية مجردة ليست بالضرورة إيجابية، والإسلام لا يتميز بعالميته بقدر ما يتميز بطبيعة عالميته التي يجب أن تكون رحمة للعالمين.

وعليه فالسؤال الأكثر إلحاحاً هو: كيف ن فك هذا الوثاق ونحرر الإنسان المسلم حتى يكون قادراً على السباحة في بحر العولمة، والاستفادة من الإمكانيات التي توفرها؟. سنحاول في هذه الدراسة - ومن خلال موضوع القيم - الإجابة عن هذا السؤال ونحسب أن لهذا الخيار ما يسوّغه فالحضارة لا تحل محل حضارة أخرى اتفاقاً وإنما أخذاً بالأسباب الموضوعية، ومن بين هذه الأسباب معرفة الحلقات الأضعف في الحضارة المهيمنة، ومن ثمّ الانطلاق منها لتصحيح مسارها، أو لتجاوزها إذا لزم الأمر.

لا جدال في أنّ النظام العالمي الغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية قد تفوق ومنذ زمن بعيد في المجالات العلمية والتقنية والاقتصادية، وعليه فإن إمكان المنافسة في هذه المجالات تبدو غير ممكنة على الأقل في المدى القريب، ولكن التفوق المادي لا يصحبه بالضرورة تفوق في القيم، فقد يحصل تقابل بين الأمرين، ويصاحب التفوق في الوسائل تدرّج في القيم. هذه المسألة تحتاج إلى شيء من التفكيك لمعرفة ماهية القيم التي أفرزتها العولمة، ومعرفة الفرق بينها وبين قيم العالمية. ما الإضافة التي يمكن أن يقدمها المسلمون في هذا المجال؟ ما الشرط الذي يجب توفره؟ هل يمكن أن نرشّد الاتصال بالتواصل، والتنافس بين الأفراد والجماعات بالتعاون والصراع مع الطبيعة بفكرة التسخير الإلهي؟ وهل نستطيع أن نجعل الخلاص الفردي رهين الخلاص الجماعي؟

نقدّر أنّ هذه المسائل في غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين لأنّ كيفية التعامل معها هي التي ستحدد ما إذا كان من الممكن استعادة شهودهم الحضاري أم لا، وهي أيضاً ستبين مدى قدرتهم على ترشيد المكاسب التي حققتها الإنسانية والبناء عليها.

العولمة وريثة العالمية ولكن

حاول كثير من المفكرين الغربيين وغير الغربيين أن يقدموا قيم الحضارة الغربية (1) على أنها قيم عالمية منفتحة، الأمر الذي يجعلها قادرة على تجاوز الإطار الفكري والثقافي لنشأتها واستيعاب وتحويل الحضارات الأخرى وإعطائها أبعاداً إنسانية بعد صهرها في الرؤية الكلية والتصورات العامة للحضارة الغربية، وذلك لأنها في زعمهم قيم ناتجة عن حركة العقل الحرّ المستتير، ذلك العقل الذي جعل من نفسه حكماً على كل السلوكات البشرية وفي كل المجالات، ونصب نفسه موجهاً لفعل الإنسان بعد أن كان موجهاً من الدين، وقد كانت هذه المهمة من قبل موكولة للسحر والأساطير. رُسمت لكل مجالات المعرفة "طرق ملكية" على غرار الطريق الملكي الذي انتهجه العلم. وكاد يستقر في الأذهان أنه من الممكن التحكم في الإنسان مثلما يمكن التحكم في الطبيعة انطلاقاً من فهم القوانين التي تسيّرّها، واستثمار الإمكانيات التي توفرّها. وبما أنّ سلوك الإنسان لا يمكن ضبطه على غرار ضبط الحركة المادية فقد حدثت جملة من التحولات الكبرى في العالم كان من الصعب

(1) يقول إبراهيم أبو ربيع في دراسة له عن العولمة: هل من ردّ إسلامي معاصر؟ "فقد مثلّ الغرب تحدياً أساسياً للعقل العربي الإسلامي الحديث، وهذا التحدي هو الذي أرغم الفكر الإسلامي الحديث على نقد الماضي ومحاولة انتحال روح الغرب العلمية الحديثة، مع ذلك بقي الغرب مصطلحاً غير محدد في الفكر الإسلامي الحديث: هل يمثل الاستعمار؟ أم الليبرالية؟ أم المسيحية؟ أم الرأسمالية؟ أم الاشتراكية؟ وكان الغرب باعتباره كياناً علمياً وثقافياً اجتماعياً باستمرار بالنسبة للعقل المسلم هجوماً عدوانياً". مجلّة إسلامية المعرفة، العدد 21، صيف 2000. ونحن نرى أنّ عدم تحديد مصطلح الغرب ناتج عن عدم التفريق بين التحديث والتغريب.

أن نجد لها مسوغات عقلية، كان من أبرزها ظاهرة الاستعمار، والكلمة هنا تعبر عن العكس تماماً من مدلولها اللغوي، وكانت أيضاً الحربان العالميتان الأولى والثانية، وانقسم العالم إلى مستعمرين ومستعمرين، وتحولت نظرية السلم والسلام العالمي إلى سعي مجنون لتطوير أسلحة الدمار الشامل، أدت هذه التحولات إلى سقوط العقل من عرشه، وأصبح بدوره أداة من أدوات الصراع الإيديولوجي. لقد كان من غير المنطقي أن ننتظر من حضارة قامت أساساً على نظرية الاصطفاء والبقاء للأقوى أن تكون عقلانية في نظرتها، لم يكن أمام الذي عجز عن المنافسة إلا الانسحاب المؤدي إلى الانقراض الكلي، شأنه في ذلك شأن أنواع الحيوانات التي لم يكن من الممكن لها أن تتأقلم مع الظروف البيئية المتغيرة.

بعد فترة من الحرب الباردة بين القوتين العظميين: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، انزاح الستار الشيوعي عن بؤس اجتماعي وفكري ليفتح الباب على مصراعيه أمام إيديولوجية اقتصاد السوق الموحد والقيم المادية الليبرالية الغربية، الساعية إلى أن تكون قيماً للإنسانية قاطبة، وبدأت المعركة أو بالأحرى استأنفت - بعد أن هدأت إبان الحرب الباردة - مع الحصون الثقافية لأنها تعتبر المُعبر الأصيل عن الخصوصية الثقافية لأمة من الأمم، عن تصور هذه الأمة للكون والإنسان والحياة، عن الفعل الإنساني ومآلاته... لقد سبق لبعض المفكرين وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية إبان الفترة الاستعمارية أن عملوا على فهم المنطق الداخلي للثقافات الأخرى بغية الوصول إلى فهم "نواة كل ثقافة"، ذلك أن تحديد النواة الثقافية يجعل تفتيت هذه الثقافة والسيطرة عليها أمراً ممكناً، واستمرت المحاولات ولكن هذه المرة تم استخدام وسائل محلية، حيث لعبت النخب الثقافية المحلية دور الوسيط الثقافي مكمل بذلك دور الوسيط السياسي والاقتصادي. ولكن الشعوب التي عانت الولايات من الاستعمار ومن حكومات الاستقلال عادت بقوة للتحصن بهويتها الثقافية بأشكال مختلفة ومتنوعة.

فشلت استراتيجية التفتيت من الداخل للثقافات المحلية، وبرزت أشكال التمييز العنصري وسياسات النهب المنظم لخيرات دول الجنوب. في ظلّ هذا الانهيار الكامل للانساق الإيديولوجية ظهرت العولمة، وحولت المواجهة مع الثقافات الأخرى إلى مواجهة عمودية، فاخترقت بذلك الحدود والحواجز، ولم تعد في حاجة إلى "الوسيط" مستثمرة في ذلك وسائل الاتصال ذات التقنية العالية. وبالرغم من أن العولمة وريث طبيعي للعالمية الغربية، وبالرغم مما يبدو من تشابه ظاهري في القيم السائدة فإننا نزع أن الاختلاف نوعي بين قيم العالمية وقيم العولمة. ومن ثمّ فسنعمد أولاً إلى فك الارتباط بين مفهوم العالمية ومفهوم العولمة.

العالمية والعولمة

سعت العالمية إلى تغيير العالم ولكن مع شيء من التفتح والانفتاح على الثقافات الأخرى، والتركيز على ما يبدو متوافق مع قيم العالمية على أمل الارتقاء بالخصوصية الثقافية إلى مستوى الثقافة العالمية، أمّا العولمة فإنها تريد محو هذه الخصوصيات الثقافية وبالتحديد تلك الخصوصيات التي تساعد على الصمود والمواجهة، أمّا الجوانب الثقافية الأخرى التي لا تتجاوز أن تكون نوعاً من الفلكلور الذي يجذب فضول السوّاح فإنها تلقى كلّ الترحيب والتشجيع. العالمية تهدف إلى تكوين وعي عام يكون معبراً عن قناعات الأفراد والجماعات، ولذلك أكدت أهمية الفرد الحر الذي سيختار عن دراية وطواعية - أو

على الأقل يتصور أنّ الأمر كذلك - الاتساق الجزئي أو الكلي مع قيمها. أمّا العولمة فلا يهملها إذا كان الفرد مقتنعاً باختياره أم لا، بل إنّه من الأفضل أن يفقد الأفراد ملكة التفكير أصلاً حتى يسير وفق المنهاج الذي وُضِعَ له بلا توقف، ولا يهم إن كان يعيشه قصد أم كان سعيه على غير هدى، تتخاطفه الصور وتتجاذبه الأهواء، وإذا عنّ له أن يتوقف ليتفكر وليتأمل ويعطي لوجوده وفعله معنى فقد القدرة على الحركة وسرعان ما يجد نفسه مُزاحاً عن الطريق ليحل محله آخرون أكثر استجابة وأكثر اندفاعاً، وإذا واصل السير يفقد نقطة الارتكاز، ويغيب عنه خط المسار، وتتلاشى أمامه نقطة المرمى، ويصبح بذلك تائهاً وسط حركة لولبية فارغة من كل معنى إلا ما يتعلق بإشباع الرغبات الذاتية التي لا حد لها، فيزجُجُ به في فضاء اللامعنى قبل أن يدخل فضاء الحداثة. وهكذا كان عماد العالمية الترغيب وأصبح عماد العولمة الترهيب.

قيم العالمية

يجب التنبيه أولاً أنّ إبرازنا لقيم العالمية بوصفها قيماً إيجابية وفعالة لا يعني أنّ الحضارة الغربية [مع ضرورة التفريق هنا بين مفهوم الحداثة الذي ساد في مرحلة العالمية ومفهوم التغريب الذي ساد في مرحلة العولمة] لم تكن حضارة نهب متواصل لخيرات الشعوب، ولا يعني أيضاً أننا ننعمد السكوت عن الدمار الشامل الذي تسببت فيه، فهناك محطات بيّنة وبارزة للعيان من إبادة مبرمجة للسكان الأصليين، وقمع متواصل للشعوب المطالبة بحريتها، فضلاً عن ملايين الضحايا في حربين عالميتين سجلتا سبقاً تاريخياً في حرب الدمار الشامل، ولكننا نصفها بالإيجابية لأنّها كانت سبباً (إلى جانب أسباب أخرى) في استنهاض الهمم والدعوة إلى التحرر وتقرير المصير، وذلك لأنّها تمتلك عدداً من عناصر الجذب والإثارة نذكر منها الآتي:

أنّها حضارة العقل... ذلك العقل الذي سعى إلى تنظيم الفعل الإنساني وترشيده في إطار فهمه لقوانين الطبيعة وتقلبات النفس الإنسانية من أجل التحكم فيها وضبط أهداف محددة يريد الوصول إليها ضمن هذه المعادلات. زيادة على قدرته على التفكير والفهم والتنظيم والتخطيط، أتقن هذا العقل أيضاً فنّ النقد الذاتي والقدرة على المراجعة والتصحيح. لكنّ مشكلة هذا العقل أنّه جعل من شروط تحرره وانطلاقه وإبداعه الانفصال عن المصادر الأخرى التي اعتبرت لا معقولة من دين ومعارف غيبية، فتحوّلت منهجية التعقل قديماً يمنع العقل من استشراف مجالات لا يصل إليها الحسّ. لم تكن قيمة أعمال العقل إبداعاً صرفاً للحضارة الغربية فلقد سبقتها إلى ذلك حضارات عديدة، ولكن الحضارة الغربية وسّعت من مجال استخدامه واستثمرته في كل المجالات وبدون حدود. قبل الحضارة الغربية كان العقل يسأل ويجيب ولكن يعترف بعجزه عن الإجابة عن كل الأسئلة التي يطرحها، أمّا عقل الحضارة الغربية فإنه جعل قدرته على السؤال مساوية لقدرته على الإجابة. بهذا تبوأ العقل موقع الصدارة وأصبح سيد نفسه، وتزامن ذلك مع سيادة التقليد والاتباع والانصياع للخرافات في المجتمعات الإسلامية، فكان لهذه القيمة صدقاً إيجابياً وتقبلها المسلمون قبولاً حسناً على الأقل من حيث المبدأ⁽¹⁾، وتباين النظائر في تحديد مجالاته

(1) يرى عبد الوهاب المسيري أنّ العقل الغربي أصبح عقلاً أداتياً قائماً على أداء وظيفة الاستجابة لنداءات الطبيعة والغريزة، وتبريرها بما في ذلك نداء الهيمنة من حرب وعنّف وإبادة ضدّ الشعوب الأخرى، واستبعاد القيم النفسية والروحية التي عجز عن تفسيرها هذا العقل المبرمج طبيعياً ووظيفياً على الأداء. انظر: عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيز (فرجينيا، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1995).

واشتد اللغظ حول علاقته بالوحي، فجعله البعض رديفاً، ووسّع البعض الآخر الدائرة حتى أصبح العقل هو الحَكْمُ وهو المهيم، ومنهم من ضيقها فلم يُسلم له إلا بتوضيح وتفسير مضامين النصوص الدينية، وآخرون ابتغوا بين ذلك سبيلاً. وبغض النظر عن المنزلة التي أعطاها العقل لنفسه أو أعطيت له فلقد كان ذلك حافزاً ودافعاً لإثارة جملة من الأسئلة المتعلقة بإصلاح المجتمعات الإسلامية ونهضتها، كانت رحلة العقل في الفضاء الإسلامي المعاصر رحلة عسيرة وشاقة، فكلمنا حول أن يعود إلى التراث ليستلهم منه شروط النهضة ويعيد ترتيب الأولويات وفق أهداف معينة تاه في دروبه وعجز عن "تخليص الإبريز من الإرث النفيس"، كما عجز قبل ذلك عن "تخليص الإبريز في معرفة أحوال باريس".

إنها حضارة الإنسان... العقلانية من حيث إنها قيمة تسعى إلى فهم قوانين الطبيعة وفهم الظواهر الإنسانية أعطت للإنسان موقعاً مركزياً، فأصبح صانعاً لأفعاله، ومسؤولاً عن الواقع الذي يعيشه وعليه مسؤولاً عن تغييره والوصول به إلى الأفضل. هذا الإيمان الراسخ بالقدرة على التغيير والإصلاح من القيم الإنسانية التي قامت عليها الحداثة، وأصبحت بذلك مشروعاً مفتوحاً في حالة اكتمال مستمرة تنصهر فيه عصارة الفكر البشري. عودة الإنسان إلى مركزه المفقود في الحضارة الغربية تزامن مع فقدان متدرج لهذا المركز في العالم الإسلامي الذي ساد فيه الاعتقاد بأن ثمة حتمية كونية تفرض نفسها على الجميع، إنَّها حتمية التدهور المستمر، من التوحيد، إلى الفجور، إلى الكفر، فالتاريخ يتجه منحدرًا من الأحسن إلى الأسوأ، فبقدر ما يبتعد الإنسان المسلم زمنيًا عن العصر الذهبي الإسلامي بقدر ما تزداد وتيرة سقوطه. ومنذ وقت مبكر ومنذ أن تم وأد الإنسان المعتزلي بفعله وبفعل الآخرين، ترسخت شيئاً فشيئاً فكرة التقدم نحو الأسوأ. كتب أبو بكر الطرطوشي (ت 520هـ): "فأما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقي كدره، فالموت تحفة لكل مسلم، لأنَّ الخير أصبح خاملاً، والشر أصبح ناضراً، وكان الغبي أصبح ضاحكاً والرشيدي باكياً، وكان العدل أصبح غائراً وأصبح الجور غالباً، وكان الغفل أصبح مدفوعاً والجهل منشوراً، وكان اللؤم أصبح باسقا والكرم خاوياً، وكان الودّ أصبح مقطوعاً والبغضاء موصولة، وكان الكرامة قد سلبت من الصالحين، وتوخى بها الأشرار، وكان الخبّ أصبح مستيقظاً والوفاء نادماً، وكان الكذب أصبح مثمراً والصدق مايلًا، وكان الأشرار أصبحوا يسامون السماء، وأصبح الأخيار يردون بطن الأرض...".⁽¹⁾

لوحة في غاية السواد، لم تعد الأمة تتقدم فقط نحو الأسوأ عند الطرطوشي، بل إنَّ الأسوأ أطبق عليها من كل جانب حتى صار الموت تحفة لكل مسلم. وبالرغم من محاولات اليقظة وإعادة الفعل للإنسان حتى يكون شاهداً على عصره، وذلك بفهم القوانين التي تحكم تقدم الحضارات، وإخراج العقل المسلم من استقراغ الجهد في فهم المتون إلى أعمال النظر لفهم آيات الكون، واستخلاص القوانين التي تحكم الطبيعة، كما كان ذلك واضحاً في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشاطبي الذي حاول أن يعيد للأذهان المسلمة المقاصد الشرعية التي غابت بفعل الزمن، وأيضاً المؤرخ الإسلامي ابن خلدون الذي استفرغ جهده في معرفة قوانين العمران، بالرغم من كل هذه الجهود فإن ابن خلدون نفسه لم يستطع أن يبعد عنه الشعور الذي انتاب الطرطوشي فقال وهو منغل في قلعة ابن سلامة:

(1) أبو بكر الطرطوشي: سراج الملوك (القاهرة: المكتبة المحمودية، 1394هـ) ص32.

"... ما نزل بال عمران شرقاً وغرباً (يقصد الشرق والغرب الإسلاميين) في منتصف المائة الثامنة للهجرة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم، وذهب بأهل الجبل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فيادر الكون بالإجابة..."⁽¹⁾.

وظل العالم الإسلامي في هذه الحالة حتى أيقظته الحداثة الغربية من سباته الطويل. لا شك أنّ محاولات الإصلاح لم تتوقف من أجل رفع هذا الخمول والانقباض، ولكنها لم تكن بحجم تلك الهزة العنيفة التي نتجت عن الاحتكاك بالحداثة الغربية، بإثارتها لأسئلة جديدة ووضعها للإنسان المسلم أمام تحديات جديدة مختلفة نوعياً عن التحديات التي عرفها، لقد سبق للعالم الإسلامي أن واجه العديد من الهجمات العسكرية، ولكن المواجهة في هذه المرة ستكون على جبهات عديدة: عسكرية، واقتصادية، وفكرية وثقافية، وبغض النظر عن حقيقة هذه التحديات فإنها أسهمت إسهاماً واضحاً في إعادة الأمل في الفعل والسعي إلى الفعالية بالمعنى الذي عبّر عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي، بل إنّ المسلم قد اكتشف أنّه بإمكانه أن يسهم في تقويم الفعل البشري، وتحقيق التقدم الحقيقي للإنسانية الذي قال عنه جمال الدين الأفغاني أنّه لم يتحقق بعد... "إنّ التقدم الحقيقي لا يمكن أن يكون إلاّ إنسانياً أخلاقياً ومستنداً إلى أساس روحي، وأن الغرب لم يتفوق على العالم الإسلامي إلاّ بآلاته وقوته المادية، أمّا التقدم الحقيقي فالشرق والغرب لا يزالان بعيدين عنه، والبشرية قد تأخرت وتراجعت عن جذورها الروحية".

ذلك أنّ إعلان الإنسان عن نفسه سيداً في الأرض فتح له شهية أن يكون سيد الكون، فقتل إلهه وتألّه، ولكن الشيء إذا اكتمل مات كما يقال، وانهارت إمبراطورية العقل تدريجياً، واستبدلت الأفكار بالسلع، وأصبحت المادة هي المتحكمة في الفعل البشري.

ما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ الحضارة الغربية في مرحلة العالمية كانت تشكل خطراً حقيقياً لأنها كانت تملك عناصر القوة والدفع والانبعاث والاستنهاض، كانت دعوة للإقلاع من أرضية الشد إلى الوهن، يظهر ذلك أيضاً من خلال ترسيخها لقيمة المساواة حيث استطاعت أن تقدم نماذج لها قابلية التطور المستمر في سبيل إيجاد دولة القانون العادلة من خلال تنظيم العلاقة بين الأفراد والجماعات، وتنظيم علاقة المجتمع بالدولة. لا جدال أنّ الغرب ليس هو أول من رفع شعار المساواة والعدالة الاجتماعية، فقبل ذلك كانت هناك محاولات عدّة لتنزيل المبدأ القرآني الذي يقضي بتكريم الإنسان في صفته المطلقة، ولكن الحضارة الغربية هي التي قدمت كفاءات متطورة للتنزيل كانت أكثر فعالية ومصداقية. ومن هنا استمدت قوتها في التأثير وجاذبيتها في الشدّ إليها، خاصة وأن المجتمعات الإسلامية كانت تشهد صوراً من الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي. وبالرغم من إيجابية قيم العالمية وقوة تأثيرها والعمل الفكري والإعلامي المنظم ضدّ الإسلام والمسلمين، فقد استطاع الإسلام

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة (بيروت: دار القلم، ط12، 1992) ص32-33

أن يصدّ محاولات الهدم المستمرة وأن يستثمر ويستوعب هذه القيم، فلماذا إذاً الخوف من العولمة وقيمها وهي لا تملك عناصر الجذب التي توفرت في العالمية؟

قيم العولمة

سبق أن أشرنا إلى أنّ العولمة حركة قسريّة تسعى بالاعتماد على احتكارها للمال والإعلام والتقنية إلى إعادة تشكيل العالم وفق الصورة التي يريدها المركز، فتتحول المفاهيم الليبرالية في نسختها الأمريكية المعاصرة إلى مفاهيم وقيم ومواقف إنسانية مشتركة لا تعرف حدود الثقافات. يرى المفكر المغربي المهدي المنجرة في كتابه (الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل) أنّ النظام العالمي بمجمله يتألف من ثلاثة أنظمة فرعية: الأول: النظام السياسي الذي يسهر على تحقيق أهدافه. والثاني: النظام الاقتصادي الذي يوفر الموارد كي يكتمل إنجاز هذه الأهداف. والثالث: النظام الثقافي الذي يحدد سلالمة القيم التي تنطوي عليها هذه الأهداف⁽¹⁾، ولكن هذه الظاهرة التي تمتد عمودياً تفتقد في تقديرنا عوامل الامتداد الأفقي، وذلك لأنّ القيم التي تُبشّر بها أو على الأقل تلك التي أفرزتها إلى حدّ الآن لا تتوفر على قوة ذاتية، وحتى إن وجدت قبولاً في بعض المجتمعات فإن هذا التقبل يعود إلى ظروف موضوعية تعاني منها تلك المجتمعات. إنّ الطابع العام لقيم العولمة طابع سلبي، وسلبيتها تتأتى من تأثيرها المعيش وغير المفكر فيه في السلوك الإنساني، ويمكن رصد هذه الظاهرة من خلال القيم الآتية:

- قيمة الخلاص الفردي... القاعدة العامة التي تتحكم في حركة العولمة من خلال اقتصاديات السوق والاتفاقيات الدولية هي قاعدة البقاء للأقوى الذي يكون قادراً على المنافسة وابتلاع المؤسسات العاجزة عن الصمود والاستمرار، ويمكن سحب هذه القاعدة على المستوى الاجتماعي فينحصر تفكير الفرد في همومه الذاتية فيسقط من قاموسه قيمة التعاون، وتفقد هذه الكلمة معناها لأنّها لا تسهم في الربح المادي السريع. هذه الحالة من التمحوّر حول الذات أفراداً وجماعات نتجت عن الاعتقاد بأن العولمة قد عادت بالعالم إلى ما قبل قرن من الزمان، إلى الرأسمالية في مرحلة توحشها مع ملاحظة الفارق، فالقيم الاجتماعية التي كانت سائدة حينئذ كانت قوية، والإيمان بالتغيير وبناء مجتمع العدالة كان أملاً دافعاً للحركة الاجتماعية، إنّ المكاسب الاجتماعية التي تمّ تحقيقها في إطار الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية مهدّدة كلّها بالزوال، وكل من يسقط وسط هذه الحركة الجنوبية لن يجد من يأخذ بيده، لن يجد من يؤمّن له الحدّ الأدنى من الأمن الاجتماعي، فالذي يفقد عمله مثلاً تنسّد أمامه الأفاق وتبدأ رحلة عذابه، فعندما "يُحكّم" على أحد بالطرد من العمل فكأنما حكم عليه بالإعدام. من هنا نفهم لماذا تسعى المنظمات الاجتماعية والإنسانية إلى مقاومة سياسات العولمة خاصّة تلك المتعلقة بالاتفاقيات التجارية الدولية، لأنهم يعرفون أنّ تضخم الشركات الاقتصادية العالمية سيكون على حساب الدولة، وضعف الدولة سينتهي بها إلى التخلص من التزاماتها الاجتماعية. يقول جوزيف أي. ستيكليتز - Stiglitz، الفائز بجائزة نوبل للاقتصاد، والذي عمل مستشاراً للرئيس بيل كلينتون، ونائباً أولاً لمدير البنك الدولي صاحب شعار (حُلْمُنَا: عالم بدون فقر): "قليل أولئك الذين يدافعون اليوم - باستثناء أولئك

(1) انظر: المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل (الدار البيضاء: الناشر عيون، 1992).

المنتفعين بصفة شخصية من غلق الأسواق أمام منتجات الدول الفقيرة - عن هذا النفاق الغليظ. فمن ناحية تدعي الدول المتقدمة صناعياً العمل على حماية الدول النامية، ومن ناحية أخرى تجبرها على فتح أسواقها لمنتجاتها، وفي الوقت نفسه تواصل هذه الدول حماية أسواقها الخاصة، هذه السياسات من طبيعتها أن تجعل الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقراً وأكثر سخطاً⁽¹⁾. وهذا ما تؤكد الأرقام حيث إنَّ عدد الفقراء قد زاد بنحو 100 مليون في حين أنَّ معدل النمو العالمي كان حوالي 2.5 %، وبيَّنت الإحصائيات أنَّ عدد الذين لا يتجاوز دخلهم اليومي دولارين قد وصل إلى 2.801.000.000، وقد كان عددهم في سنة 1990 2.718.000.00⁽¹⁾.

لا شك أنَّ تعلق الفرد بذاته في إطار هذا المنطق الذي لا يضع أي اعتبار للقيم الأخلاقية أمرٌ في حدِّ ذاته له ما يبرره، فماذا يمكن أن يفعل من تقطعت به الأسباب ووجد نفسه أمام تحدي الجوع والعري، وحيداً في مواجهة مشكلاته في عالم تكسدت فيه السلع وماتت فيه القيم؟ لقد سقطت الشيوعية وصفق الجميع لسقوطها فلا أحد يأسف على ما خلفته من استبداد سياسي وفساد اجتماعي، ولكن الأسئلة التي أثارها الشيوعية حول العدالة الاجتماعية لا زالت معلقة، والمشكلات الاجتماعية التي نتجت عن ذلك ستتعمق أكثر.

- قيمة الحياد السلبي، التضخم في وسائل الاتصال والتطور المذهل الذي عرفه هذا المجال يقابله تدنُّ متواصل في التواصل بين الناس، قد يكون الفرد مالِكاً أو مستخدماً لكل وسائل الاتصال الممكنة، ولكنه في الوقت ذاته يكون جاهلاً لما يحصل في محيطه الضيق، بل لعلَّه لا يجد في نفسه ما يدفعه إلى السؤال عن ذلك. لم تؤد هذه الوسائل لتقوية الروابط الاجتماعية، وإنما جاءت لتقدم تسهيلات لتحقيق المزيد من المنافع المادية دون تحقيق التواصل الاجتماعي الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بالتعارف. فالآخر وبغضِّ النظر عن مستوى قربه أو بعده من الأنا، قرابة دموية، أو قرابة وطنية، أو قرابة دينية أو انعدام بعضها أو كلها لم يعد حاضراً إلا إذا ارتبطت بحضوره حاجة مادية مقدرة، كل شيء أصبح سريعاً ومؤقتاً، الصداقة مؤقتة، الجوار مؤقت، حتى الأسرة أصبحت مؤقتة. تعمقت السلبية تجاه الآخرين، وحتى لا تؤدي الفواجع إلى التقارب الشعوري والعمل مع الضحايا تحرص وسائل الاتصال، المقروءة والمسموعة والمرئية على الفصل بين خبر وآخر بلقطة دعائية، أو صورة مثيرة، في أغلب الأحيان مزودة بشحنة جنسية قوية من أجل أن تقطع حبل الوصل بين المشاهد والأحداث الجارية، وحتى لا يتوقف ليفكر ويكتشف المنطق الذي يربط بين هذه الأحداث التي تبدو منفصلة. هذا الحرص على تفتيت الواقع الموضوعي بتوظيف ذكي للصورة التي طغت على الخطاب فأصبحت الوسيلة الأكثر حضوراً والأكثر تأثيراً في المشاهد فيعود إلى موقع السلبية والغرق في الهموم الذاتية، هو من أجل تعميق روح الحياد الذي يؤدي بطبعه إلى غياب الفعل وموت الشعور، فلم يعد هناك ما يثير من القضايا غير تلك التي لها علاقة بحياته الخاصة ومصالحته الفردية.

(1) Josef. E. Stiglitz, La Grande desillusion (Paris: Fayard, 2002) P.23

(1) (Banque Mondiale, Global Economic, Prospects and the Developing). Countries 2000 (Washington DC:

Banque Mondiale, 2000) P. 29

- قيمة السلبية والاستسلام... سقوط الأنساق الأيديولوجية غذت هذا الحيد السلبي، وعمقت روح الاستسلام والتسليم بالأمر الواقع، وتوقف الحديث عن تغيير العالم وبدا الأمر وكأن هناك قوانين للتاريخ سابقة لحدوث التاريخ، فالفوارق الاجتماعية أصبحت فوارق طبيعية، والبقاء للأقوى قانوناً طبيعياً، وانقسام العالم إلى شمال لا تتجاوز نسبة سكانه 20 ٪ من سكان العالم يملك ما يزيد عن 80 ٪ من ثروته، وجنوب لا يملك منها إلا 20 ٪، وكذلك التحول من اقتصاديات السوق التي تفرض المنافسة إلى اقتصاديات الرأسمال القائم أساساً على الاحتكار... كل هذه الأمور وغيرها أصبح يُنظر إليها أو على الأقل يتعامل معها وكأنها فوق الإرادة البشرية، فليس من المُجدي معارضتها ولا ينفع معها إلا إتقان فنّ التأقلم وتوظيف ما أمكن منها لخدمة الأغراض الشخصية إذا استثنينا بعض مظاهر الاعتراض الشعبي فإن النظام العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لم يجد صعوبة تُذكر في احتكار التكنولوجيات الحديثة والرفيعة بالرغم من أنه لم يستطع أن يحتكر استخدامها⁽¹⁾. واحتكار القرار باستخدام وسائل الضغط للحصول على الموارد الطبيعية واستثمارها والتحكم المباشر في خط التنمية، وكذلك في احتكار وسائل الإعلام فضلاً عن احتكار الوسائل العسكرية. هذا الشعور بالعجز شلَّ حركة التغيير بمختلف اتجاهاتها، وانعدمت تقريباً الدعوات إلى مقاومة هذا الوضع، ولأنَّ العالم الإسلامي قد انفرد ببعض أشكال المقاومة لهذه الاحتكارات وخاصة في الجانب الثقافي والفكري فهو عرضة لكل الضغوط الدولية وسياسة المراقبة الدائمة والمحاصرة المستمرة. قال المفكران الأمريكيان جراهام فوللر وإيان ليسر في كتابهما (الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة): "يشعر العالم الإسلامي بأنه يعيش تحت حصار فرضه الغرب في عديد من المجالات الحيوية والسياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية"⁽²⁾. ومع ذلك لم يرَ المفكر سمير أمين في الظاهرة الإسلامية الوجه الأكثر حضوراً في الدفاع عن الهوية الثقافية للأمة الإسلامية إلا ظاهرة ثقافية تنتمي إلى عصر ما قبل الحداثة حيث يقول: "تشارك الثقافة المضادة ظاهرياً - وهي تتخذ في العالم الثالث [لا ندري من ممثلي العالم الثاني؟] المعاصر أشكالاً مختلفة منها بالأخص الشكل الديني المزعوم في العالم الإسلامي - خطاب المركزية الغربية في اعتبار أساس مفاده أنَّ الثقافات متباينة بشكل جوهري عبر التاريخ. لذا أقول وشارك آخرون رأيي: أنَّ الثقافة ليست إلا مركزية أوروبية معكوسة"⁽¹⁾. وذلك وبحسب زعمه أنَّ التيار الإسلامي بمختلف اتجاهاته قد قبل المقايضة التي تقضي بالتنازل عن طموحات الضحايا في الديمقراطية والحرية والمساواة والفردية مقابل إحلال قيم خصوصية مزعومة. والسؤال المنطقي الذي يثار بداهة هو: إذا كان التيار الإسلامي قد قبل هذه المقايضة فلماذا هذه الحملة المسعورة التي ما تكاد تهدأ حتى تشتعل من جديد ضدَّ الإسلام والمسلمين؟ هذا لا يعني خلوَ الساحة

(1) اعتقد الذين نظروا للعلمة الثقافية أنَّ الوسائل الإعلامية المتطورة ستؤدي إلى توحيد ثقافات الأمم والشعوب وصلفها في بوتقة العولمة، ولكن يبدو أنَّ الأمر أكثر تعقيداً من هذا التصور الميكانيكي، فقد تمَّ استخدام هذه الوسائل نفسها للتأكيد على تنوع الثقافات وتعددها، بل للتأكيد على تنوع قراءة الأحداث السياسية. وهكذا وجدت قوى العولمة نفسها ولأول مرة في موقع المنافسة. يكفي أن نستحضر الإزعاج الذي تسببت فيه قناة الجزيرة القطرية للإدارة الأمريكية أثناء حربها على ما سمَّته بالإرهاب في أفغانستان.

(2) جراهام إي فوللر وإيان أوليسر: الإسلام والغرب: بين التعاون والمواجهة (القاهرة: مؤسسة الأهرام، 1998) ص122

(1) برهان غليون، سمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة (دمشق: دار الفكر، ط2، 2000) ص99

الإسلامية من اجتهادات رتبت عندها الأولويات بشكل معكوس فركزت جهودها حول مظاهر التخلف ولم تُعمل النظر في أسبابه، وهذا لا شك يمكن أن يُوظف في خدمة أهداف الرأسمالية من حيث أراد أن يواجهها.

هذه الحالة من الاستسلام أدت بدورها إلى حالة من الانتظار للخلاص الفجائي الذي سيكون على يد شخص يتوفر على خصائص خارقة للعادة، جعلتها المخيلة الشعبية في حجم القوة المسيرة للنظام العالمي الجديد، فعلى العكس من ظاهرة الاستعمار التقليدي التي أدت إلى ظاهرة مقاومة الاستعمار، أدت ظاهرة العولمة إلى حالة من اليأس والاستسلام.

هل يعود ذلك إلى الأسلحة الناعمة التي تسيرها القوى المسيرة للعولمة كما يذهب إلى ذلك برهان غليون، حيث يقول: "وأنا من الذين يعتقدون أنّ العولمة تحمل مخاطر هيمنة أقوى نفوذاً وأثراً من الاستعمار التقليدي لأنها بالضبط لا تستخدم الطرق العنيفة التي استخدمها، ولكنها تعتمد على قبول الناس وسعيهم إليها والاندماج فيها، كما تخاطب عقولهم ومخيلاتهم قبل أن تتعامل مع مواردهم الطبيعية وأسواقهم"⁽¹⁾. هل يعود ذلك إلى حالة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي التي لا يزال يعاني منها المجتمع الإسلامي؟

لنبدأ أولاً بإبراز هذه الحقيقة التي أجمع عليها كل المهتمين بموضوع العولمة، وهي أنّ حركة التقدم في الوسائل المادية حركة مطردة ومتراكمة حيث إنّ صناعة المعلومات والمعرفة العلمية والتكنولوجيا تطورت في المجتمع الغربي تطوراً مستمراً منذ انطلاقتها في القرن الرابع عشر مروراً بعصر التنوير ثمّ عصر الصناعة والتكنولوجيا إلى التحولات النوعية التي عرفتها التكنولوجيا في العصر الراهن، ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هو: هل التقدم في القيم تحكمه نفس القوانين التي تحكم التقدم المادي؟ نحسب أنّ هناك فروقاً نوعية واختلافات بيّنة بين التقدم المادي والتقدم القيمي، التقدم في الوسائل المادية تقدم مطرد وتراكمي، والتقدم القيمي مرتبط بالثقافة السائدة.

لا شك أنّ الهيمنة الغربية في مرحلة العولمة تتحقق بأساليب غير مباشرة، ويمكن أن نقول عنها إنها أكثر فعالية، ولكن علينا أن نتساءل عن فعالية القيم التي تحكمها هذه القوة المادية الجبارة. فهي لا تحمل شعار العقلانية والمساواة والعدالة الاجتماعية، كل ما يمكن أن ندّعيه أنّها "حامية لحقوق الإنسان"، وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق في الواقع، وذلك للارتباط الوثيق بين مسألة حقوق الإنسان والمصالح السياسية والاقتصادية، هذا الشعار سيُرفع إذا كانت هناك مصلحة في رفعه، ولهذا السبب لن يصبح لهذا الشعار قيمة إيجابية للعولمة. وتأسيساً على ذلك نزع أنّ المسلمين خرجوا منتصرين من المعركة مع الفلسفات اللادينية التي تأسست عليها الحداثة المعاصرة بدليل أنّ وجودهم وتأثيرهم ما زالوا مستمرين بالرغم من كل أساليب الحصار التي فرضت عليهم. ولا ننسى أنّ المطلوب كان إزاحة الدين وبشكل نهائي بوصفه مرجعاً فكرياً وثقافياً. إنهم أقدر الناس على التعامل إيجابياً مع العولمة وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: لأنّ شروط المناعة التي يتوفر عليها المسلمون - فكرياً وثقافياً - ما زالت قادرة على الفعل. وثانياً: لأنّ إيديولوجية العولمة لا تملك ذلك الزخم الذي كانت تمتلكه الليبرالية في مراحلها السابقة. وثالثاً: لأنّ عدم امتلاك تقنية الصناعات الالكترونية المرئية لا يعني عدم القدرة على استخدامها، أمّا الصورة التي تمّ ترويجها عن العالم الإسلامي بوصفه عالماً

(1) المرجع نفسه، ص 134.

جامداً لا حراك فيه - جلدًا للذات أو ترسيخاً للادعاء الذي جاء في كتاب توماس فريدمان السيارة ليكسس وشجرة الزيتون - فإنها لا تعدو أن تكون صورة نمطية يُراد منها قتل روح الأمل في التغيير، وتحطيم إرادة القوى التي تسعى إلى التغلب على عوامل الشد إلى الوراء الداخلية منها والخارجية. من هنا تأتي أهمية السؤال المتعلق بالإضافة التي يمكن أن يقدمها الفكر الإسلامي لترشيد الفعل الإنساني، ماذا يمكن أن يقدم الإسلام لمعالجة اتصال بدون تواصل؟ وماذا يمكن أن يقدم لمعالجة السلبية التي أضحت تميز إنسان العولمة؟ بلغة أخرى كيف يمكن أن نعيد للحدثة قداستها المفقودة؟

حادثة في رحاب الدين

إذا انطلق المسلمون من قناعاتهم الدينية فيقولون بكل تأكيد إنَّ "المستقبل لهذا الدين" لأنهم يؤمنون بأن ذلك وعد إلهي سيتحقق لا محالة، ولكن هذه الحقيقة الإيمانية لا تتحقق في الواقع بمجرد أن نجد من يؤمن بها نظرياً، فشرط تحققها في الدنيا شروط في تناول الإنسان. وهناك أسباب يجب الأخذ بها، وأول هذه الأسباب أن ثواجه هذه التحديات بثقة كاملة، فلم يعد ينفع ما يمكن أن نسميه بالتحصين السلبي، الذي يتمثل في الإعراض عن الواقع الذي أوجدته العولمة، ولم تعد تنفع سياسة المنع والحجب، ولا أظنها كانت يوماً نافعة. لأنَّ الدفاع عن الهوية والمحافظة عليها لا يكون بالانطواء على الذات فضلاً عن أن هذا لم يعد ممكناً في عالم انفتح فيه كل شيء على كل شيء، ولكن المحافظة عليه تكون باستيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة، وليس ذلك مشروطاً بالاعتراف بهيمنة الحضارة الغربية حتى يمكن التعلم منها، ولا بقبول النموذج الغربي صراحة حتى يمكن استخدام التقنية الحديثة كما ذهب إلى ذلك هنتغتون. فالربط بين القدرة على استخدام واستثمار الوسائل المتطورة ربط تعسفي وقياس وحدانية الثقافة على وحدانية السوق قياس فاسد. يقول الدكتور محمد الشيبيني في كتاب بعنوان صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة: "... ومن هنا كان سلاح العولمة الأحادية الثقافة وسيلة للهيمنة أمضى سلاح قامت باختراعه الاستراتيجية والمستقبلية على اختلاف أنواعها ومسمياتها في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، ووجدت تلك المراكز التي يعمل بها كبار العلماء والباحثين في السياسة والاقتصاد والعلوم بمختلف فروعها، وفي مجالات التكنولوجيا المتقدمة أن سلاح العولمة هو أمضى الأسلحة جميعها، وأشدّها أثراً، حيث يمكن عن طريقها أن تحقق الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية نصراً على مقدرات ثقافة الشعوب وحضارتها"⁽¹⁾.

إننا لا ننكر أنَّ الغرب لم يتوقف يوماً عن فرض قيمه وثقافته على الآخرين، ولكن يجب أن نحذر من الإطلاقات التي يضيفها الغرب على نفسه، فهو الأقدر على التحكم في الآخرين، ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن الشعوب الأخرى، هذه الإطلاقات فيها جوانب إيديولوجية كثيفة يراد منها تثبيت كل محاولات التعامل الإيجابي مع العولمة، فلا يكون أمام العولمة إلاَّ الموقف الداعي إلى الانصهار الكلي فيها، أو الموقف الراض لها كلية، ولا جدال أنَّ التعامل مع هذين النوعين من المواقف سيكون أيسر بالنسبة للذين يتحكمون مادياً في العولمة ولا يحتاج إلى جهود كبيرة.

(1) محمد الشيبيني: صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة (بيروت: دار العلم للملايين، 2002) ص70

فمهما كانت قوة ثقافة معينة لن تستطيع أن تمحو من الوجود هذا التنوع والتعدد الثقافي، والثقافة التي يمكن أن تستمر هي الثقافة القادرة على هضم واستيعاب واحترام الخصوصيات الثقافية، ونحسب أن الإسلام قد أثبت قدرته في الماضي على ذلك، وأثبت قدرته أيضاً على التفاعل الإيجابي مع قيم الحداثة في الزمن المعاصر، فلم لا يكون قادراً على التعامل الإيجابي مع العولمة. يجب على المسلمين أن يضعوا أنفسهم في موقع التصحيح الذي يتطلب الاستفادة والإضافة أو الاحتفاظ والتجاوز كما عبّر عن ذلك الشيخ راشد الغنوشي، وليس في موقع الرفض السلبي للتجارب الإنسانية. ما أبرزناه من قيم سلبية للعولمة لا يعني أن العولمة لا تتوفر على عدد من القيم الإيجابية، ولكننا أردنا فقط أن نركز على الفضاءات التي يمكن أن يعود من خلالها الحضور الفعلي للحضارة الإسلامية.

من الاتصال إلى التواصل والتعارف

عند تناولنا للقيم السلبية للعولمة قلنا إن التطور المذهل في وسائل الاتصال لم يؤدي إلى تطور في قيمة التواصل، ولم يعمق التعارف بين الشعوب، وسيصبح هذا، الوجه المزدوج للعولمة، وسائل اتصال بدون تواصل، ومعلومات كثيفة عن العالم الثالث ومعرفة شبه معدومة بمشكلاته⁽¹⁾، أكثر وضوحاً وأكثر خطورة عندما تتغلغل الرأسمالية الجديدة في كل ركن من أركان العالم، ويتم تشكيله وفق متطلبات الاقتصاد المعولم. إن المبدأ الإسلامي الذي يمكن أن يكون بديلاً عن هذه القيمة السلبية هو ذلك الذي يمكن استخلاصه من الآية الكريمة (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، هذا تأكيد قرآني على فكرة التنوع الفكري والتنوع الثقافي لأنه نتيجة منطقية لحرية الإنسان التي على أساسها كان التكليف، فإن كان الشرع يرفض فكرة الإكراه في الدين ويحاربها (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) فإنه لا محالة يرفض إكراه الناس على ثقافة أحادية. لذلك دعا إلى التعارف بين الشعوب، ولكن هذا التعارف يتجاوز مفهوم المعلومات الجافة عن شعب من الشعوب إلى ضرورة التفاعل معهم والتعاطف مع قضاياهم ومشكلاتهم. بهذا يمكن أن يؤدي الاتصال إلى التواصل، وتؤدي المعرفة إلى التراحم، الاتصال يؤدي إلى التواصل عندما يرتبط بقيمة أخلاقية محمودة فيتحول من تبادل آلي للمعلومات إلى ترسيخ لروابط الاحترام المتبادل، فتصبح المعرفة أرضية للتسامح والتعاون والتكامل، والتكامل لا يكون إلا بين طرفين أو أكثر اعترف كل منهما بالآخر، اعترف به بوصفه جزءاً من ذاته ولكن أيضاً بوصفه ذا خصوصية أو خصوصيات يتفرد بها.

يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "يظهر أن مبدأ التعارف الإسلامي يقرّ بالتفاوت الأخلاقي بين المتعارفين، لأنه ثمرة التنافس على حفظ العلاقة الأخلاقية التي تجمعهما، كما أنه يقرّ بالاختلاف الثقافي بين المتعارفين، لأنه سبب في توسيع دائرة

(1) يقدم جوزيف. أي. ستينكليتز صورة معبرة حيث يقول: "الحرب التكنولوجية المعاصرة صمّمت من أجل القضاء على كل احتكاك مادي. تُقذف القنابل من علو يتجاوز 1500 م حتى لا يحسّ الجندي الطيار ببشاعة الفعل الذي يقوم به. وكذلك الإدارة المعاصرة للاقتصاد فإنها تتبع نفس التكتيك، من أعلى غرفة في منزل فاخر، تُفرض سياسات تحتاج إلى تأمل مضاعف لو كنا نعرف عدد الذين سيكونون من ضحاياها". مرجع سابق، ص 52.

معارفهما، بينما الاتصال المعلوماتي يلغي كلباً عنصر الأخلاق في المعلومات ويعمل على محو هذا الاختلاف لصالح ثقافة المُلغى وحده"⁽¹⁾.

إخراج حقوق الإنسان من عنق الزجاجة، بغض النظر عن القراءات المختلفة لحقوق الإنسان وبالتحديد للمرجعية التي تستند إليها، وبغض النظر أيضاً عن الحقوق المختلف فيها باختلاف زاوية النظر، فإنّ هناك نسبة عالية منها تعتبر قاسماً مشتركاً بين كل الثقافات والأديان والإيديولوجيات يجب إخراجها من المأزق الذي تردت فيه، والمتمثل في اختناقها بين المصالح السياسية والاقتصادية. هذه الحقوق يجب أن تحترم لذاتها، وكل انتهاك لها مهما كان مصدره يجب أن يُدان ولا يكون الموقف تجاهها مرتبطاً بمصلحة مادية قريبة أم بعيدة. وانطلاقاً من المبدأ القرآني المتعلق بتكريم الإنسان [**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ (الاسراء: من الآية70)**] بوصفه إنساناً بصرف النظر عن انتمائه العرقي والوطني والديني، نقدر أنّ المسلمين هم المؤهلون لتحرير حقوق الإنسان من الضغوطات السياسية والمصالح الاقتصادية. لأنّ الإسلام قبل أن يكون أحكاماً وحدوداً هو عقيدة إلهية، جوهرها الرفق بالإنسان، تقوم على الإيمان بحرية الفرد ومسؤوليته وحقه في المساواة التامة الأخلاقية والقانونية وفي عدالة اجتماعية تضمن له الأمن والسلام فهو نقبض على التمام لإيديولوجية الرأسمالية القائمة على تراكم الثروة وجعل النفعية أساس الفعل الإنساني، فليس هناك تراتبية وأفضلية في قضية المساس بكرامة الإنسان، وبالرغم من أنّ هذه الحقوق قد تبلورت في الفكر الغربي والليبرالي تحديداً، فإن احترامها واقعيًا ولذاتها يكاد يكون مستحيل التحقيق، لأنّ احترامها ارتبط بالمصالح السياسية والاقتصادية. الأصل أنّ الفعل السياسي والاقتصادي فعل يقصد منه الفضل [**فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**] (الجمعة:10) والفضل بمعنى التقرب إلى الله، ومُحال أن يكون التقرب إلى الله على حساب المستضعفين من الرجال والولدان والنساء. فالمصلحة السياسية والاقتصادية تنتفي عنها المشروعية إذا ارتبطت بظلم الآخرين أو بالسكوت عن قضايا المظلومين [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**] (الانبيا:107)

بهذا يمكن للإسلام أن يواجه هذه السيولة المادية التي أفرغت أفعال الإنسان من كل معنى. قد يعترض معترض فيقول كيف تريدون منّا أن ندافع عن حقوق الإنسان ونحن نُظلم يومياً ولا أحد يلتفت إلينا أو يدافع عنّا. والاعتراض له بعض المشروعية إذا نظرنا للمسألة نظرة قاصرة ومحدودة. ولكن العولمة المادية لا يمكن أن تُواجه إلاً بعالمية إنسانية، والفضاء الأرحب لهذه العالمية هو الإسلام؛ فالغرب وخاصة في مرحلة العولمة لا ينظر إلى قضايا الإنسان إلاً من زاوية المنفعة، وكما يقول محمد عابد الجابري: "يمكن القول إنّ هناك ثابتاً واحداً أساسياً في موقف الغرب والباقي متغيرات، والموقف من العرب أو من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العالم يتغير دائماً وقد يتغير من النقيض إلى النقيض إذا اقتضى ذلك منطق "الثابت" وليس "الثابت" في تحركات الغرب شيئاً آخر غير المصالح، فعندما تُمسُّ مصالح الغرب أو يكون هناك ما يهددها تغير الموقف"⁽¹⁾. فهل يمكن لأيديولوجية تجعل من المنفعة المرتكز والغاية أن تدعي

(1) طه عبد الرحمن، "روح العولمة وأخلاق المستقبل"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 26، خريف 1422هـ/2000م، ص167.

(1) محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر (بيروت: مركز الوحدة العربية، 1997) ص125.

الدفاع عن حقوق الإنسان، ولكن المفارقة العجيبة أنّ المظلومين والضحايا لا يجدون ملجأ إلا في المجتمعات الرأسمالية، وهكذا يتعلق الغريق بالذي أغرقه - عن طريق أنظمة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي - دون أن يدري. ذلك هو التحدي الأكبر للمسلمين، لقد فقدت الإنسانية إنسانيتها فمن يعيدها إليها، العولمة بقيمتها السلبية توفر للمسلمين هذه الفرصة التاريخية، فهل يستجيبون؟

من السلبية إلى الشهود

إنّ ثقافة الاستهلاك قد تعمقت في إطار الاقتصاد المعولم وتحولت إلى نمط حياة يملئ على الإنسان مواقفه، فلم يعد هناك فرق يُذكر بين الأساسيات والكماليات فأصبحت علاقة الإنسان بحاجاته الأساسية مثل علاقته بالكماليات، لا يستطيع أن يستغني عنها، ولذلك صار يستجيب للتسهيلات المغرية البنكية وغيرها، وسرعان ما تتحول هذه التسهيلات إلى قيود مادية بعد أن تحولت الكماليات إلى قيود يفرضها الموقع الاجتماعي (Social Status). أصبح الإنسان سجين منطق ذاتيته التي تضخمت شيئاً فشيئاً، أضف إلى ذلك فشل حركات التغيير بكل اتجاهاتها في تغيير الواقع، كل هذا أدى بالإنسان إلى التسليم بالأمر الواقع والاستسلام له.

إعادة الهمة للإنسان في العالم الإسلامي وتقوية إمكانات المجتمع تُعتبر من الشروط الأساسية لمواجهة ثقافة الاستهلاك وإخراج الفرد من حالة السلبية والاستسلام للأمر الواقع. لم يعد للفرد شعراً يُؤطر فكره ويوجّه فعله، فهو لا يشعر بالراحة ولا يشعر أيضاً بالقلق الإيجابي المثير للسؤال والدافع للعمل. منذ ما يقرب من قرنين من الزمان أثار المسلمون سؤال كيف نتقدم؟ فكان شعار التقدم الإطار العام المؤطر لحركة الفئات الاجتماعية، وما كاد المجتمع الإسلامي ينطلق في عملية تغيير شاملة حتى بسط الاستعمار نفوذه، فكان لا بُدَّ من إثارة سؤال كيف نحرر الأرض؟ وأصبح شعار تحرير الأرض شعاراً جامعاً، وعندما جاءت دولة الاستقلال أصبح السؤال الملحّ هو كيف نحقق التنمية؟ وبدلاً من أن تؤدي مشاريع التنمية إلى تحديث المجتمع أدت إلى تغريبه، فكان لا بُدَّ أن يُثار سؤال كيف نحافظ على الهوية؟ واختلف النُظائر حول هذه المسألة باختلاف زوايا النظر، ولم يكن الاختلاف في ذاته سبباً في تعقيد هذه القضية وما ترتب عنها من صراع بين الدولة والمجتمع الذي أدى إلى تعميق الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، ولكن لأنَّ شعار الهوية كان شعاراً يتناقض مع التوجه العولمي فكان من الضروري إجهاض هذا الشعار، فتهاكت النخبة وانهارت البنى الاجتماعية، وتفاقت المشكلات، وكانت تلك الحالة أرضية مناسبة للتبشير بالعولمة التي ستكون الحل المرتقب. ولكن العولمة أدت إلى تعميق ما سمّاه عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو - P. Bourdieu "العنف الهيكلية"⁽¹⁾ في هذه المجتمعات حيث زاد عدد العاطلين عن العمل كما زاد عدد المهمشين. أمام هذه الحصيلة المأساوية لمسيرة التحديث في المجتمعات الإسلامية شعر الإنسان المسلم بحالة من الإحباط، وبدا وكأن هناك قوى خفية تتحكم في مصير مجتمعه، فانعقد لسانه وشُلَّت حركته وأسقط من قاموسه فكرة التغيير. من هنا

(1) Diplomatique (Paris: Mars 1998) Page Pierre Bourdieu, "L'essence du neoliberalisme", le Monde

تبدو أهمية إعادة الإنسان إلى الفعل بإعادة الثقة إليه وبتعميق روح المسؤولية عنده. تلك هي قاعدة الانطلاق في مواجهة هذه السلبية السائدة وبثّ روح التغيير.

خاتمة

هذه القيم السلبية التي أبرزناها توضح لنا هشاشة العولمة بالرغم من قوتها المادية، وتؤكد أن الخطاب الذي سيكون بديلاً هو خطاب يجب أن يكون إنسانياً بالضرورة. لقد وصل المشروع التحديثي إلى منتهاه من الاستنارة إلى ما بعد الحداثة إلى التطابق الكلي بين الفكر والغريزة. يقول عبد الوهاب المسيري: "وإذا كان المشروع التحديثي للاستنارة قد خرج من تحت عباءة "اسبينوزا" فقد خرجت ما بعد الحداثة بوجهها القبيح من تحت عباءة نيتشه، ثم جاء دريدا الذي وصل بالسيولة إلى منتهاها وأعلن أن العالم لا مركز له ولا معنى، وأنه سيولة لا يمكن لأحد أن يصوغها أو يفرض عليها أي شكل، وإننا حينما ننظر لا نرى قانون الطبيعة الهندسي (على طريقة اسبينوزا) ولا الغاية التي تحكمها إرادة البطل على طريقة نيتشه، وإنما نرى الهوة (أبوريا)، وهذا هو عالم (مادونا) و (مايكل جاكسون)، عالم عبارة عن موجات متتالية بلا معنى، عالم علماني صلب تماماً".⁽¹⁾

لقد اشتغل العقل الإسلامي في الفترة الماضية بالتفكير في ذاته بعد أن عجز عن تحديد وظيفته، وتاه في البحث عن هويته التاريخية، وذلك لأن هذا الانشغال بالعقل في ذاته، على أهميته، قد أحرَّ الاهتمام بالأزمة الحقيقية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية التي هي أساساً أزمة غياب الديمقراطية، غياب الإنسان الحر الذي يمتلك أدوات التفكير، ويمتلك إمكانات الفعل. لقد غاب عن الذين افترضوا أن جوهر الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية أزمة عقل مستقل تصلبت منهجيات تفكيره، أن هذا التصلب للعقل جزء من التصلب الذي أصاب الواقع الإسلامي في كل أبعاده، وفي كل الأحوال لن يتخلص هذا العقل من حالة الاستقالة التي يعانيها إلا إذا استطاع الإنسان المسلم أن يتخلص من الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، لأنَّ العقل حتى وإن كان ناقداً لذاته لن يستطيع أن ينتج وأن يبدع إلا في مناخات تضمن للإنسان حرية التفكير، وتوفير الحد الأدنى من الأمن الاجتماعي.

المهمة الملقة على عاتق الفكر الإسلامي مهمة مزدوجة: إصلاح الواقع الإسلامي الذي في أغلبه الأعم يسير نحو الإنهيار الكامل، وتصحيح مسار الإنسانية الذي أدخلته الحضارة الغربية في نسختها الأمريكية في طريق مسدود. ماذا سيحدث للإنسانية في عالم طغت فيه النسبية في كل شيء، فلا توجد ثوابت ولا منطلقات ولا قيم غلbia؟ وماذا سيحدث للإنسان في عالم تكدست فيه المعلومات وغابت فيه الحقائق؟ وماذا سيكون مصير العلم الذي اتحد مع التقنية، فانفصل نهائياً عن القيم والأخلاق؟

(1) عبد الوهاب المسيري، "الحوالية والتوحيد والعلمنة الشاملة"، مجلة التجديد، السنة الأولى، العدد الثاني، ربيع الأول 1418 هـ، يوليو 1993 م،

المراجع

- 1- أبو بكر الطرطوشي: سراج الملوك (القاهرة: المكتبة المحمودية، 1394 هـ.
- 2- برهان غليون، سمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة (دمشق" دار الفكر، ط2، 2000
- 3- جراهام إي فوللر وأيان أوليسر: الإسلام والغرب: بين التعاون والمواجهة (القاهرة: مؤسسة الأهرام، 1998) .
- 4- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة (بيروت: دار القلم، ط12، 1992) .
- 5- عبد الوهاب المسيري، "الحلولية والتوحيد والعلمنة الشاملة"، مجلة التجديد، السنة الأولى، العدد الثاني، ربيع الأول 1418 هـ، يوليو 1993م.
- 6- عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيز (فرجينيا، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1995).
- 7- طه عبد الرحمن، "روح العولمة وأخلاق المستقبل"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 26، خريف 1422 هـ/2000م .
- 8- محمّد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر ، بيروت: مركز الوحدة العربية، 1997.
- 9- محمّد الشيبني: صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة (بيروت: دار العلم للملايين، 2002) .
- 10- المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل (الدار البيضاء: الناشر عيون، 1992).

المراجع الأجنبية

- 1- (Banque Mondiale, Global Economic, Prospects and the Developing). Countries 2000 (Washington DC: Banque Mondiale, 2000).
- 2- Diplomatique (Paris: Mars Pierre Bourdieu, "L'essence du neoliberalisme", le Monde 1998).
- 3- Josef. E. Stiglitz, La Grande desillusion (Paris: Fayard, 2002) P.23